في الأدب المقارن

طور الثقافة

في الأدبين العربي والانكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع عهود رقي الجماعة : فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلي هذا طور الحضارة ؛ وفي الطور الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه ، بل يكون الشعر تعبيراً ساذجاً عن بسيط العواطف ممتزجاً بالغناء والرقص ، ويكون النثر شذوراً من الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة ؛ ويأتي الطور الثاني بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالاً أرقى وأدق واختلاطها بالأمم الراقية ؛ وفي هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون وتتسع جوانب النثر ، ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلي فطرياً متبدياً ، حتى إذا عبر هذا الطور إلى طور الحضارة ازداد ترفاً في الحياة ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة ، فظهر في أدبه أثر الثقافة والفن والصناعة

وقد مر الأدب العربي بالطور الثاني من هذه الأطوار في عهد الجاهلية وصدر من الاسلام : ففي ذلك العهد كان العرب على جانب يعتد به من الرقي العقلي لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم ، وفي ذلك العهد نضجت اللغة العربية نضجاً عظيماً وبلغ الشعر من الرقي شأواً بعيداً ، بيد أن الأدب ظل فطرياً بعيداً عن أثر الثقافة والدراسة والتدوين والصنعة ، ثم نهض العرب نهضتين علميتين في مدى قرنين : أولاهما بظهور الاسلام ونزول القرآن وفتح الأقطار ، والثانية بترجمة علوم الأقدمين ، وبذلك انتقل الأدب العربي إلى الطور الثالث من أطوار رقيه : طور الحضارة والثقافة

وقد انتقل الأدب الانجليزي إلى هذا الطور أيضاً بنهضتين متواليتين : الأولى في القرن السادس عشر بوصول حركة إحياء علوم الأقدمين — اليونان والرومان — من أوربا إلى انجلترا ، والثانية في القرن التاسع عشر عقب التقدم الصناعي العلمي الذي كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير من أئمة النهضة العلمية الحديثة في علوم الفلك والحياة والطب والنفس وغيرها

ويلاحظ أن هناك اختلافاً في توالي النهضتين في الأمتين : فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذي نشأ بين أظهرهم ، وكانت الثانية خارجية آتية من نقل علوم الأمم الأخرى ، بينما في انجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولاً ثم كانت النهضة التالية داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم

وقد أوفى العرب على الغاية في الشغف بالعلوم والجد في تحصيلها ، وأظهر أمراؤهم من التقدير للعلم وأهله والرغبة في خدمته والبذل في سبيله ما لم يظهره ملوك دولة في التاريخ ، وكانت رعايتهم للعلماء — بعكس ما كان تقريبهم للشعراء — جليل النفع بعيد الأثر

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب ، الطيّعة الأسلوب ، الغنية بطرائق الاشتقاق ، خير معوان في جدهم في درس العلوم ، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات ، وكان رقيها العلمي في عهد الدول الاسلامية يفوق كثيراً رقيها الأدبي : فبينما ظل أدباء الجاهلية دائماً أساتذة للمتأخرين يحتذونهم في الأدب ، أمعن علماء الاسلام وفلاسفته في مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال

ولم يقصر أدباء العربية عن غيرهم في تلك الحلبة العلمية المحتدمة ، ولم يكونوا دون سواهم شغفاً بالعلم وطلباً لشوارده ، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية ، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم : فمن نشأ في يسار أحضر له المؤدبون ، ومن ترعرع في بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه ، ومن قصر به جده عن هذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف إلى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس ؛ أما المدارس والجامعات فلم تنشأ إلا متأخرة ، قبيل بدء عهد الركود الفكري ، ولم يكد يتخرج فيها عَلَم من أعلام الأدب

وكان من خصائص الثقافة الاسلامية ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها ، وقد ظهر أثر كل هذا في المؤلفين وفي مؤلفاتهم : كانوا

طموحين فى طلبهم العلم يبنون تمثُّل كل ما فى عصرهم من مناحى التفكير ، وكانوا كذلك طموحين فى مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن . ولو أردنا أن نشير إلى الأدباء الذين نالوا حظاً عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسى الزاهى بين القرنين الثانى والخامس الهجرى . ويكفى أن نذكر من الشعراء المعرى الحكيم المعنى بشؤون الكون والفلك والحياة الاجتماعية ، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد فى الحياة والكتب ، والذى كان — كما قيل — يستأجر المكاتب ليلاً ليبيت فيها يستوعب محتوياتها

تماثَلَ الكتّاب والشعراء فى الأخذ من الثقافة بنصيب ، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظاً من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة ، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية ، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء ، ولا بد لتلك المناصب من دراية واسعة وإلمام شامل ، ولأن كثيراً من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز ، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوالج النفسية ، فلم يكن بهم كبير حاجة إلى دراسة العلوم التى تهذب الفكر ، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التى سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين ، والبحترى أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا فى صميم عهد الثقافة بنجوة عنها ، فقد كان حريصاً على استبقاء السذاجة البدوية ، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحاً لمن يرجو عندهم العطاء ، وهجواً لمن خيبوا منه ذلك الرجاء

كان أعلام الأدب الانجليزى كذلك على جانب عظيم من الثقافة ، وقد حصلوا — عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون — علومهم فى الجامعات التى أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس ، ونَبُهَ صيت بعضهم وهم ما يزالون طلاباً بها ، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية فى الاشتمال على الفلسفة اليونانية ؛ ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربى القديم تتم الباقى من ثقافة الأديب العربى ، كانت دراسة الأدب اليونانى تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزى . ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية ؛ ولمعرفة اللغات أثرها العظيم فى تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول ؛ ويكثر الالماع إلى اليونان والرومان : تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم فى الأدب الانجليزى ، كما تكثر الاشارة إلى الجاهلية والجاهليين فى الأدب العربى

ويتشابه رجال الأدبين فى الرحلة عن الوطن فى نشدان العلم : فقد كان أدباء العربية يطوفون فى البلاد فى طلب أئمة العلوم يلزمونهم ، وفى طلب نوادر الكتب يستنسخونها ، وربما أضافوا إلى ذلك حج البيت الحرام . وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوى اليسار الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية إلى أوربا وخاصة إلى إيطاليا مبعث النهضة الأوربية ، وربما أضافوا إلى ذلك الحج إلى آثار بلاد الأغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة ؛ ولهذه الرحلة عن الوطن — فضلاً عن كسب العلم ومصاحبة العلماء — أعظم الأثر فى تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق خياله

وكان لانتشار الثقافة فى الأمتين آثاره المتشابهة فى الأدبين : فارتقيا خيالاً وأسلوباً وأغراضاً ومعانى ، واتسعت جوانبهما ، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة ، وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التحبير ، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة ، واشتدت المنازعات الأدبية ، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد ، وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية فى رسائل الكتاب وقصائد الشعراء ، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين صناعتى العلم والأدب

ولا ريب أن هذا الطور الثالث من أطوار رقى الأدب التى أشير إليها فى صدر هذه الكلمة — طور الحضارة والثقافة — هو أرقى ما يصل إليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال ، وفيه أنتج الأدب العربى خير نتاجه ، فالأدب لا يبلغ غايته إلا فى حضارة تحيط به ، وثقافة تغذيه ، وروح نقد تستحثه . وقد دام هذا الطور الأدبى فى العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة ، تخلّف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم وولوعهم بالأدب ، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها ، فاضطرب المجتمع ، وجمدت الأفكار ، ودخل الأدب فى طور تدهوره الطويل .

فتحى أبو السعود